بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السادس

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ إمام المرسلين؛ نبيِّنا محمد ﷺ وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

الحديث الثاني عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير، احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا وكذا؛ ولكن قل: قدَرُ الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان» رواه مسلم.

هذا الحديث هو من جوامع كلم النبي ﷺ، ومشتملٌ علىٰ أصول عظيمة مهمَّة، ينبغي علىٰ كلِّ مسلم مراعاتها والتقيُّد بها ليتحقق له خيري الدُّنيا والآخرة، وليفوز بالفلاح في الدنيا والآخرة.

قال ﷺ في أوَّل هذا الحديث: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير**» وهذا فيه دلالة واضحة علىٰ تفاضل أهل الإيمان في الإيمان، وأنَّهم في إيمانهم ليسوا علىٰ درجةٍ واحدة، لا فيما قام في قلوبهم من إيمان، ولا أيضًا فيما قامت به جوارحهم وألسنتهم من أمور الإيمان وأعماله، فبينهم في ذلك تفاوتٌ كبير، وتباينٌ واسع، وليسوا في الإيمان علىٰ درجة واحدة؛ ولهذا قال: «**المؤمن القوي**»، ثم قال: «**المؤمن الضعيف**» ففيهم مَن إيمانه قوي، وفيهم مَن إيمانه ضعيف، وهذا يتناول أمور الإيمان ممَّا يقوم بالقلوب، ومما يكون علىٰ الألسن، ومما تفعله الجوارح، وكلّ ذلك الناس فيه أو أهل الإيمان فيه متفاوتون ليسوا فيه علىٰ درجةٍ واحدة.

وهذا الأصل الذي هو التَّفاضل؛ تفاضل أهل الإيمان في الإيمان دلَّت عليه نصوصٌ كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه، من ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢]؛ فهم ليسوا علىٰ رتبةٍ واحدة، ولهذا تفاضلت الدَّرجات يوم القيامة والمنازل في الجنة بحسَب التفاضل الذي عليه أهل الإيمان في الدُّنيا.

وإخبار النبيِّ ﷺ بهذا التفاوت في أهل الإيمان وأنَّ منهم قوي ومنهم ضعيف فيه الحث لأهل الإيمان علىٰ العناية بأسباب قوة الإيمان وزيادته والبعد عن أسباب نقصه وضعفه، وهذا واضح في قوله: «**أحب إلىٰ الله**»، فالنبي ﷺ يرغِّب أمته في الأحبِّ إلىٰ الله جل وعلا، والأعظم ثوابًا عند الله عزَّ وجلَّ، وهذا من تمام

نصيحة النبي الكريم عليه صلاة والسلام وحسن بيانه، «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف**».

وفي الحديث إثبات المحبّة صفةً لله، فالله جل وعلا وصف نفسه في القرآن بأنّه يحب، ووصفه رسوله ﷺ بذلك في أحاديث كثيرة، فنحن نؤمن بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ متَّصف بهذه الصِّفة علىٰ الوجه اللائق بجلاله وكماله؛ كما قال عن نفسه عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، فهو متَّصف بهذه الصِّفة.

وصفات الله عَزَّوَجَلَّ القاعدة فيها عند أهل السنة أنها تُمرُّ كما جاءت ويؤمن بها كما وردت وتثبت لله تبارك وتعالىٰ علىٰ الوجه اللائق به عَزَّوَجَلَّ، وعليه فنقول: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ متَّصف بهذه الصفة -صفة المحبة- كما أخبر هو عَزَّوَجَلَّ عن نفسه، وكما أخبر عنه بذلك رسوله ﷺ، وهي صفةٌ تليق بالله جل وعلا، وتليق بكماله، وليست محبَّته كمحبة المخلوقين، كما أن كل صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليست كصفات المخلوقين؛ وهو القائل: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ]، والقائل: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾[مريم]، والقائل: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾[الإخلاص].

ولهذا تثبت الصِّفات مع البعد عن التشبيه -تشبيه الله بخلقه-، وتشبيه الله بخلقه كفرٌ بالله؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ منزَّه عن الشبيه والمثال وعن الكفء والنظير تعالىٰ وتنزَّه وتقدَّس عن ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والحديث فيه إثباتُ المحبَّة ومتعلَّق المحبة، والله عَزَّوَجَلَّ يحبُّ ومتعلَّقُ محبته مراضيه وطاعاته والأمور المقرِّبة إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك من قام بها، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحبُّ الإيمان، ويحبُّ الطاعات، ويحب القربات، ويحب من قام بها، يحبُّ التوابين، ويحبُّ المتطهرين، يحب التوبة، ويحب من تاب، يحب التطهر، ويحب من تطهر، يحبُّ الطاعة، ويحب من قام بالطاعة.

فهذا متعلَّق المحبة؛ يحبُّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عباده المؤمنين، يحب عباده المطيعين له الممتثلين لأمره ولا تُنال هذه المحبة بمجرد الدعاوىٰ، وإنما تنال بالجد والاجتهاد في نيل رضاه وطلب محابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما مجرد الدعاوىٰ فليس ورائها طائل إلا الخيبة والحرمان، واليهود قالوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾[المائدة:١٨] فما أغنت عنهم كلمتهم هذه شيئا ولا نفعتهم بشيء؛ لأنَّ مجرد الدعوىٰ لا قيمة لها، ولهذا قال بعض السلف: "ليس الشأن أن تُحِب ولكن الشأن أن تُحَب" أي: أن يحبك الله، أما مجرد الدعوة فهذه يسيرة علىٰ كل لسان، وسهلة علىٰ كل إنسان، فالشأن في أن يُحِبَّك الله وأن تنال محبة الله ومحبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنما تنال برضاه.

والحديث فيه دليل واضح علىٰ أنَّ محبة الله إنما تُنال بالإيمان وما اشتمل عليه، ولهذا تلاحظ قول الله

تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[البقرة] التوبة والتطهُّر من الإيمان، فالله عَزَّوَجَلَّ يحب الإيمان، وكلُّ ما اشتمل عليه الإيمان، ويحب من قام بالإيمان وحقق الإيمان وقام بخصاله، وكلَّما كان العبد أعظمُ قيامًا بخصال الإيمان وشُعبه عظُمت منزلته عند الله عَزَّوَجَلَّ وارتَفعت مكانته عنده سبحانه بحسب ذلك.

ولهذا لاحظ التفاضل في المحبَّة المؤمن القوي خير وأحب عند الله من المؤمن الضَّعيف، فهذا فيه التفاضل في المحبة؛ يعني محبة الله للمؤمن القوي أعظم وأكبر من محبَّته للمؤمن الضَّعيف، فلا يستويان في قدر أو فيما ينالونه من محبَّةِ الله لهم، لا يستوون في ذلك، وإنَّما يتفاوتون بحسب تفاوتهم في متعلقات المحبة من أمور الإيمان وخصاله وشُعبه وأعماله، وهذا واضحٌ في قوله عليه الصلاة والسلام: «**المؤمن القوي خير وأحبّ إلىٰ الله من المؤمن الضَّعيف**».

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**وفي كلٍّ خير**» إشارة إلىٰ أنَّ ثمة خيرٌ مشترك بين المؤمن القويّ والمؤمن الضَّعيف، وهو وجود أصل الإيمان وما يكون به البراءة من الكُفر والشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فهذا قدْرٌ مشترك لولا وجوده في الضَّعيف الإيمان لم يكن من أهل الإيمان، فالخير موجودٌ مع الضَّعف في إيمانه.

وهذا فيه فائدة: أنَّ ما يكون عند العبد من الإيمان فهو خيرٌ له حتىٰ وإن قلَّ ما لم يفسد إيمانه ويبطله بناقلٍ من الملة، ولهذا جاء في الحديث القُدْسي الصحيح أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول يوم القيامة: «أخرجوا من النار من كان في قلبه أدنىٰ مثقال ذرّة من إيمان»، فالإيمان -وإن قلَّ- فهو خيرٌ لصاحبه، وفيه خير له وبركة عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: «**وفي كلٍّ خير**» حتىٰ لا يُظن في المؤمن الضعيف الظنون، وإنما يعرف له خيره وتُحفظ له حقوقه التي يوجبها له دخوله في هذا الدِّين وكونه من أهله، فهذه تحفظ له لما قام به من خير.

والحديث يدلُّ أيضًا أن من لا إيمان عنده لا خير فيه، وما يكون عنده من أعمالٍ فيها نفعٌ وفائدة وصلاح فإنَّ كفره بالله يبطلها وشِركه به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُفسدها، وتكون أعمالُه باطلة، لا ينتفع منها بشيء؛ لأن الشِّرك والكفر مفسدٌ للأعمال مبطل لها، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٥٤]، ولهذا يكون شأن أعمال هؤلاء يوم القيامة أن تذهب هباء؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]،

فمن لا إيمان عنده لا خير فيه، فالخير مع الإيمان وجوده بوجوده وعدمه بعدمه، فإذا عُدم الإيمان عُدم الخير، وإذا وجِد الإيمان وجِد الخير، وهذا مستفاد... عليه الصلاة والسلام: «**وفي كل خير**»؛ أي: في من إيمانه قوي وإيمانه ضعيف هؤلاء في كل خير، ومفهوم المخالفة أن من لا إيمان عنده لا خير فيه.

والحديث فيه دلالة علىٰ أنَّ الإيمان يزيد وينقص، ويقوىٰ ويضعف، ودلالته علىٰ هذا الأصل من أصول الإيمان واضحة؛ لأن من إيمانه أقوىٰ أزيد إيمانا ممَّن إيمانه أضعف، ومن إيمانه أضعف أنقص إيمانا ممن إيمانه أقوىٰ، فالإيمان يزيد وينقص، يزيد إيمانُ الشَّخص حتىٰ يكون موصوفًا بالمؤمن القوي، وينقص إيمانُه حتىٰ يكون صاحبه موصوفًا بالمؤمن الضعيف.

وقد سُئل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيزيد الإيمان وينقص؟ قال: نعم، يزيد حتىٰ يكون أمثال الجبال، وينقص حتىٰ لا يبقىٰ منه شيء، فإذا زاد وأصبح أمثال الجبال فهذا مؤمن قوي الإيمان، ومن نقص إيمانه وضعف أصبح ضعيف الإيمان، فالحديث واضح الدَّلالة علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص ويقوىٰ ويضعف، وأن أهله ليسوا فيه سواء.

ثم لمَّا بيَّن النبيُّ ﷺ هذا البيان العظيم وأوضح هذا الإيضاح النَّافع وجَّه الأمةَ، وهذا من كمال نصحه وتمام بيانه عليه الصلاة والسلام، وكأنَّك عندما تسمع قول النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضَّعيف**» يتحرَّك في قلبك سؤال؛ وهو كيف تكون قوة الإيمان؟ وكيف تكون السَّلامة من ضعفه؟ وكيف ننال هذه الخيريَّة ونحظىٰ بهذا الفضل العظيم والمقام الرفيع؟ لا شك أنَّ هذه سؤالات تتوارد علىٰ الخاطر والمؤمن يسمع قول النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف**» فيأتيك البيان دون أن تسأل، وهذا من كمال النُّصح، من كمال نصح نبينا عليه الصلاة والسلام لأمته؛ ولهذا قال: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن**» دلَّك إلىٰ الطريق التي تنال بها عالي المقامات ورفيع المنازل.

وهذه وصية عظيمة ونافعة غاية النفع لمن وفَّقه الله تبارك وتعالىٰ لفهمها والعمل بها، وحصول الخير في الدنيا والآخرة متوقِّفٌ علىٰ تحقيق هذه الوصية المباركة، «**احرص علىٰ ما ينفعُك**» هنا دعوة للحرص علىٰ النَّافع المفيد، و(الحرص) هذه الكلمة يدخل تحتها قوّة الإرادة وعلوّ الهمة ونشاط القلب وحسن رغبته وتوجهه للخير، كلُّ ذلك من الحرص، وزوال الكسل عنه، والتَّواني والفتور والتراخي والتسويف وغير ذلك من المعاني، فالحِرْص كلمة جامعة يدخل تحتها معاني عظيمة، فمن كان حريصا كان ذا همة

عالية ونشاط، وبعد عن التواني والكسل، وبُعد عن التسويف والتباطؤ في أمور الخير، قال: «احرص علىٰ ما ينفعك»:

فأولًا: الحرص، والحرص يستتبعه سلوك النافع المفيد، لمَّا قال: «احرص علىٰ ما ينفعك» ليس المراد أن يكون حرصٌ في القلب دون عملٍ بالجوارح، وإنما المراد بالحرص هنا حرص القلب علىٰ النافع ومضي الجوارح فيما حرِص القلب عليه من الأمور النافعة المُفيدة، فهذانِ أمران دلَّنا عليه قوله: «احرص علىٰ ما ينفعك».

الأوَّل: حرص القلب علىٰ النافع.

والثَّاني: سلوك الطريق المفضي إلىٰ النافع المفيد.

وقوله: «ما ينفعك» هذا يتناول كلَّ نافعٍ في الدِّين والدُّنيا، وهذه دعوة من النبي ﷺ للعناية بكل نافع في الدين والدنيا.

أما النافع في الدين فهو ما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فهذا هو النافع في دين الله.

وأمَّا ما لا دليل عليه من الكتاب والسنة فليس بنافع؛ لأنه لو كان نافعا لدلَّ النبيُّ ﷺ أمته عليه؛ لأننا نعتقد أن النبي عليه الصلاة والسلام دلَّ الأمة علىٰ النافع المفيد وما يقربها إلىٰ الله ﷻ، وحاشاه أن يكون قد ترك نافعًا مفيدا للأمة في دينها وما يقرِّبها إلىٰ الله دون بيانٍ وإيضاح، والله ﷻ قال: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾[المائدة:٣]، فالنافع هو ما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وتأمَّل هنا أنَّ حرصك علىٰ النافع في دينك يتطلَّب منك أمران:

الأول: العلم النافع، ومعرفته، والعناية به، والتبصُّر في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ، والفقه في دينه جل وعلا، وخاصَّةً ما يعلم من الدِّين بالضرورة مما لا يعذر فيه أحد؛ بل يجب علىٰ كلِّ مسلم ومسلمة أن يتعلمه، مثل التوحيد والصلاة وواجباتها وأركانها وأركان الإسلام ومعرفة الحلال والحرام، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فهذا فيما يتعلَّق بالنافع في الدين يتطلب أمران: معرفته.

والأمر الثاني: العمل به.

وبهذا يكون العبد من المهتدين الراشدين، ويسلم من أن يكون من الضالين الغاوين؛ لأن الضال من لا علم عنده، والغاوي من عنده علم لا يعمل به، وتكون السلامة من الضلال والغواية بالعلم النافع والعمل الصالح، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الفتح:٢٨]، الهدىٰ العلم النافع

وضده الضلال، ودين الحق العمل الصالح وضدُّه الغواية، وقد مدح الله عَزَّوَجَلَّ نبيه بقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم]؛ لاجتماع كمالِ العلم وكمال العمل فيه ﷺ، والنبيُّ ﷺ أثنىٰ علىٰ خلفائه الراشدين بهذا، قال: «تمسكوا بها» أي سنته «وعضوا عليها بالنواجذ»، «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» الراشدين المهديين، فالراشد الذي يعمل والمهتدي الذي يعلم اجتمع فيهم كمال العلم والعمل.

وإذن حرصك علىٰ ما ينفعك في دينك إنما يكون بهذين الأمرين؛ بتحصيل العلم النافع، وبالقيام بالعمل الصالح الذي دل عليه العلم النافع، بهذين الأمرين تكون قد حرِصْت علىٰ ما ينفعك، أما من تعلم العلم النافع ولم يعمل به فلم يكن داخلًا فيمن حرِص علىٰ ما ينفعه؛ لأن انتفاعُك بعلمك بعملك به، فمقصود العلم العمل، ولهذا قال علي بن أبي طالب: "يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل".

فالانتفاع إنما يكون بالأمرين، ولهذا جاءت دعوت النبي ﷺ بهذا المقام مباركة قال: «اللَّهُمَّ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزدنا علما» لاحظ الانتفاع يكون بالأمرين «علمنا ما ينفعنا» هذا انتفاع، «وانفعنا بما علمتنا» أي: لنعمل به ونحققه ونطبقه، فالانتفاع في أمور الدِّين لا يكون إلا بالأمرين معا؛ بالعلم النافع والعمل الصالح، وقد كان عليه الصلاة والسلام يدعو بهذين الأمرين كلَّ يوم بعد صلاة الصبح؛ كما صح بذلك الحديث عنه ﷺ، كان يقول كل يوم بعد صلاة الصبح: «اللَّهُمَّ إني أسألك علما نافعا وعملا صالحًا -وفي رواية: وعملًا متقبلًا-، ورزقا طيِّبًا» فكان كل يوم يستهله ويفتتح صباحه بهذه الدعوة المباركة؛ سؤال الله عَزَّوَجَلَّ تحقيق الأمرين: العلم النافع والعمل الصالح وهذا كلُّه من الحرص علىٰ ما ينفع، وانظر هذه الهمَّة العالية من بداية اليوم ومفتتحه حرصٌ علىٰ هذا النافع المفيد العلم النافع والعمل الصالح.

قال: «احرص علىٰ ما ينفعك» هذا يتناول النفع الديني؛ ما ينفعك في دينك وقد مضىٰ الحديث عنه باختصار، والجانب الثاني ما ينفعك في دنياك أيضا تحرص عليه، وهذا أنت مطالب به، مطالب بأن تحرص علىٰ ما ينفعك في دنياك بما تقتات به وتتعيّش، ولا تكون عالة علىٰ الآخرين، وحتىٰ تتيسَّر لك النفقة عليك وعلىٰ من تعول، وحتىٰ أيضا يتيسر لك الإنفاق والصدقة والبذل ومساعدة المحتاجين، وغير ذلك؛ فلا بد من الحرص حرص الإنسان علىٰ ما ينفعه في دينه، ولا يكتفي الإنسان في هذا الباب بالاتكال علىٰ القدَر، فإن هذا تواكُل وليس اتكالًا واعتمادا، فالاتكال علىٰ الله والاعتماد عليه ببذل السبب، لا بالاعتماد

علىٰ القدر معطلا للسبب.

ولهذا لا بد أن يحرص الإنسان علىٰ ما ينفعه في أمور دُنياه، وقوله: «ما ينفعك» هذا دعوة إلىٰ أن يحرص الإنسان علىٰ الرزق الطيب، ولهذا قال في دعوته ﷺ المتقدمة «ورزقًا طيبا»؛ لأن ما ليس بطيب ليس بنافع وليس بداخل تحت قوله: «احرص علىٰ ما ينفعك»، ولهذا فإن من طلب تحصيل المال بالطرق الربوية أو بالابتزاز وأخذ أموال الناس بغير حق، هؤلاء لا يدخلون تحت قوله: «ما ينفعك»؛ لأن ما يحصلونه من أموال ضارة لهم في الدنيا والآخرة، وممحوقة البركة في الدنيا والآخرة، فليست بنافعة، فالنبيُّ ﷺ دل إلىٰ الحرص علىٰ ما ينفع، والنافع هو الحلال الذي أحلَّه الله تبارك وتعالىٰ، فكل حلال نافع وكل حرام... أو اكتسب تجارة أو غير ذلك بغير الحلال فهذا ليس بنافعٍ لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ بل هو ضررٌ محقق علىٰ صاحبه في دينه ودنياه، ووبالٌ عليه في دينه ودنياه، ومن ظنَّ أنَّ المال لا يحصل إلا بهذه الطرق، والربح لا ينال إلا بهذه الوسائل فقد أساء الظن برب العالمين، وجنىٰ علىٰ نفسه أعظم جناية وأضر بنفسه أعظم الضرر، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «كل جسد قام علىٰ السحت فالنار أولىٰ به» ولهذا الحديث فيه تنبيه علىٰ هذا المقام العظيم، قال: «احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله».

وها هنا يُطرح سؤال وربما يرد علىٰ كثير من الأذهان قول النبي ﷺ: «احرص علىٰ ما ينفعك» فيما يتعلق بالأمر الدنيوي؛ يسأل بعض الناس تحديدا ما الأنفع لي في أمور الدنيا؟ هل أكون مزارعا؟ هل أكون تاجرا؟ هل أكون كذا؟ لأن وسائل تحصيل المال النَّافعة متعددة، والله عَزَّوَجَلَّ وسَّع لعبادة أبواب الرزق ونوع مجالاته قال: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾[المُلك:١٥]، فأبواب الرِّزق واسعة، والأمر في هذا واسع، فالباب في هذا واسع ليس هناك أمر يلزمُك أن تقوم به دون غيره، وإنما ما تتَّجه همتك له ورغبتك إليه وميولك، أو تتيسَّر لك أبوابه، فكلُّ نافع تتيسر لك أبوابه وتتهيأ لك سبله فهو من النَّافع الذي تحرص عليه وتستفيد منه، ويدخل تحت قوله: «احرص علىٰ ما ينفعُك» فيما يتعلق بأمور الدُّنيا أن تنوي بها النوايا الطيبة لتتقوَّىٰ بهذا المال علىٰ طاعة الله ولتُنفق منه في سبيل الله، ولتساعد به من هو محتاجًا، فهذه النية الطيبة المباركة تُثاب عليها حتىٰ لو لم تحصِّل المال، وفضل الله عَزَّوَجَلَّ عظيم.

قال: «واستعن بالله» لما ذكر عليه الصلاة والسلام وحثَّ علىٰ الحرص علىٰ النافع، وذكرتُ لكم أنه يدخل تحته أمران الحرص القلبي وسلوك السبيل النافع المفيد، لما حث علىٰ ذلك وجَّه للاستعانة علىٰ ذلك بالله وطلب العون منه؛ لأن الأمور بيده والتوفيق بيده، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وفي قوله:

«احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله» دعوة لفعل هذين الأمرين:

- الحرص علىٰ النافع الذي هو بذل السبب.
- مع الاعتماد علىٰ الله.

فمن فعل السبب معتمدا عليه لم يكن محقِّقا ما دل عليه هذا الحديث.

ومن عطل السبب معتمدًا علىٰ الله لم يكن محققا هذا الحديث.

ولا يكون تحقيق هذا الحديث إلا بالأمرين: فعل السَّبب، والاعتماد علىٰ الله تبارك وتعالىٰ.

والناس في هذا الباب ثلاثة مذاهب: مذهبان باطلان، ومذهب حق.

أما المذهب الحق: فهو الذي جمع الأمران اللذان دعا إليهما النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث، يفعلون السبب، ويعتمدون علىٰ الله تبارك وتعالىٰ لا علىٰ السبب، هذا المذهب الحق.

والمذهب الثاني: وهو مذهب باطل من يفعلون السبب معتمدين عليه معطِّلين الإيمان بالقدر، وهؤلاء سبيلهم إلىٰ الحرمان والخيبة، ومن تعلَّق شيئًا وُكل إليه، فيكلهم الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ الأسباب التي اعتمدوا عليها فلا ينالون إلا الخيبة والحرمان.

والمذهب الثالث: من يعتمد علىٰ الله ويعطل السبب، فلا يفعل السبب ولا يطلب الرزق، ولا يسعىٰ في النَّافع المفيد له في دنياه، لا يفعل ذلك ويقول: أنا متوكِّل علىٰ الله.

مثل الناس الذين جاءوا في زمن الصحابة من جهة اليمن ولم يأخذوا معهم زادا وقالوا: نحن المتوكلون، جاءوا بدون زاد، ثم أخذوا يسألون الناس، فهؤلاء ليسوا أهل التوكل، أهل التوكل الذي يبذل السبب ويعتمد علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا من عطل السبب لا ينال بتعطيله السبب إلا الخسران؛ مثل لو قال قائل: إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ أن أكون من كبار العلماء أكون؛ لكن لم أقرأ في حياتي كتابا ولن أجلس يوما من الأيام عند عالم وسوف ألعب وأمرح وأنام وأمضِّي أوقاتي في اللهو، وإن كتب الله لي سوف أكون من كبار أئمة المسلمين، هذا يموت ولا يحصل من العلم شيئا.

وكذلك لو قال قائل: لو شاء الله أن يأتيني أولاد؛ لكن إلىٰ أن أموت لا أتزوج أبدا، وإن شاء الله أن يأتيني أولاد يأتون، هذا يموت ولا يأتيه الأولاد.

وهكذا لو أن إنسانا له أرض قال: لو شاء الله أن تكون هذه الأرض فيها أنواع من النخيل والأعناب

والثمار يكون؛ لكن لن أبذر ولن احرث ولن أسقي ولن أفعل شي من ذلك، وإنما سأنام عند الأرض وإن شاء الله أن تكون من أحسن المزارع تكون ما يحصل ولهذا قيل:

تمنيت أن تمسي فقيها مناظرا بغير عناء والجنون فنون

وليس اكتساب المال دون مشقة تلقيتها فالعلم كيف يكون

الشاهد: أن تحصيل النافع لا يكون إلا بالأمرين، فعل السبب مع الاعتماد علىٰ الله تبارك وتعالىٰ، ومن عطَّل السبب معتمدا علىٰ الله أو عطَّل التوكل معتمدا علىٰ السبب، فكل في سبيل خيبة وخسران، والصلاح والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، إنَّما هو بما وجه ودعا إليه رسول الله ﷺ في قوله: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله**».

وقوله: «**ولا تعجزن**» هذا فيه تحذير من ضدّ الحرص وهو العجز، والعجز هو التواني والكسل والفتور وارتخاء الهمة، فهذا حذَّر منه عليه الصلاة والسلام ونهىٰ عنه، قال: «**ولا تعجزن**» أي: إياك والعجز، ولا ينبغي أن يكون الإنسان متصفا بهذه الصفة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أحب الأسماء إلىٰ الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام» هذا فيه إشارة إلىٰ ترك العجز والحِرص علىٰ النَّشاط وعلو الهمة والجد وترك التّواني والكسل.

قال: «**ولا تعجزن**» ثم إن الإنسان إذا حرص علىٰ ما ينفعه واستعان بالله وترك العجز ليس شرطًا أن يحصِّل ما يُريد في كل حال، فقد يفوته بعض المقاصد أو بعض المطالب أو قد يبتليه الله بأمر من الأمور، فليس شرطًا أن كل ما تحرص عليه وتكون فيه معتمدًا علىٰ الله تاركا للعجز ليس شرطا أن تناله؛ بل يكون قد يكون هناك مانعًا خفي عليك، أو يكون الله عَزَّوَجَلَّ أراد بك خيرا في عدم تحصيله، وغير ذلك مما لا تعلمه.

فهنا تنتبه إذا حرصت علىٰ ما ينفعُك واستعنت بالله وتركت العجز، ثم فأتتك بعض مقاصدك وغاياتك لا تفتح علىٰ نفسك باب الشيطان، ولهذا قال: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، ولا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا**» هذا يفتح عليك باب الشيطان.

مثلا لو أن شخصا اتجه في العطلة إلىٰ مثلا السفر إلىٰ مكة للاعتمار، وجهز نفسه ورتب أموره وهيأ مصالحه، واعتمد علىٰ ربه تَعَالَىٰ، وعندما خرج من البلد اصطدمت سيارته وتعثرت السيارة ولم تصبح صالحة أو خرِبت وتعطلت، ما يفتح علىٰ نفسه باب الشيطان ويقول: لو أنني ما جئت من هذا الطريق، أو

لو أنني ما مشيت اليوم، أو لو أنني أخرت السفر لآخر الإجازة، يفتح علىٰ نفسه باب الشيطان من غير فائدة.

ولهذا انظر كمال النصح والبيان من النبي عليه الصلاة والسلام: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن**» فإذا تعطلت المصلحة أو حصل لك مصيبة أو قدَّر الله عليك، ففي هذا المقام انظر الطاعة التي عليك في هذا المقال، ولا تفتح علىٰ نفسك باب الشيطان، فتصبر وتحتسب وترجو من الله عَزَّوَجَلَّ أن يُكسبك وينيلك ثواب الصَّابرين المحتسبين.

أما أن يفتح الإنسان علىٰ نفسه باب الشيطان بكلمة (لو)، «**لو أنِّي فعلت كذا لكان كذا**» فهذا أمر لا فائدة فيه البتَّة وفيه مضرة متحقِّقة، ما المضرَّة المتحققة؟ قال عليه الصلاة والسلام: «**فإن لو تفتح باب الشيطان**» هذه المضرَّة، يدخل الشيطان علىٰ الإنسان ويبدأ يُضعف إيمانه، ويوهِّي دينه ويدخل عليه الحزن في قلبه، وربما جعله يسيء الظن بربه، إلىٰ غير ذلك من المداخل التي تكون فتحًا للشيطان علىٰ الإنسان بسبب استعماله لهذه الكلمة، ولهذا لا تستعمل هذه الكلمة في هذا المقام، في مقام المصيبة أو الابتلاء، فلا يقول الإنسان في هذه الحال لو أني فعلت كذا أو لو أني لم أفعل كذا أو نحو ذلك فكل ذلك يفتح باب الشيطان.

وأيضا حالة أخرىٰ لا يجوز فيها استعمال (لو)، استعمال (لو) في تمني الحرام، مثل أن يقول شخص: لو كان عندي مال لفعلت كذا وكذا؛ يعني من الأمور المحرمة، أو لو تمكنت من كذا لفعلت فيه كذا وكذا من الأشياء المحرمة، وهذا استعمال لـ(لو) باطل لا يجوز.

ولـ(لو) استعمالات صحيحة مثل أن يستعملها في تمني الخير أو مثلا في تعليم العلم، مثل لو قلت لكم لو حفظت كل يوم عشرة أحاديث وحفظها سهل عليك فإنك في السنة الواحدة ستكون كذا قد حفظت، هذا تعليم، استعمال صحيح لـ(لو) ولا شيء فيه.

أو مثلا في تمني الخير: لو كان عندي مال لتصدقت أو نحو ذلك، هذا استعمال لا شيء فيه إذا كان استعملت في استعمال صحيح.....

استعملت في تمني الشر أو استعملت في الاعتراض علىٰ القدر؛ مثل ما أشار النبي ﷺ في الحديث فإن هذا لا يجوز.

وقوله: «**تفتح عمل الشيطان**» هذا فيه فائدة أخرىٰ عظيمة أن تحرص أيها المسلم عن البعد عن كل

لفظ يفتح عليك عمل الشيطان، وهذا مثال (لو)، وليس فقط هو الذي يفتح من الألفاظ عمل الشيطان؛ بل هناك ألفاظ كثيرة تفتح علىٰ الإنسان عمل الشيطان، فهذا مثال، وكل ما يفتح عمل الشيطان يبتعد عنه الإنسان من أمر قولي أو فعلي، والله جل وعلا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [النور:٢١]، فكل ما يفتح للشيطان عليك باب فلتُوصده.

وأيضا يتحصَّن الإنسان منه بذكر الله تبارك وتعالىٰ، ولهذا جاء في المصاب أن يقول المسلم بدل كلمة (لو): إنَّا لله وإنا إليه راجعون، فينال بذلك خيرا عظيما وفضلا عميمًا.

والله أعلم

الحديث الثالث عشر

عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه، متفق عليه.

هذا الحديث العظيم في بيان ما ينبغي أن يكون عليه أهل الإيمان من خير وتواصل وتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، فإن الإيمان الذي يجمعهم وألَّف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به بين قلوبهم يقتضي أن يكون أهله كما وصف النبي ﷺ، في هذا الحديث كالبنيان يشد بعضه بعضا، وقف هنا متفكِّرا في هذا المثال؛ قال: «**كالبنيان**» فانظر إلىٰ البيت فيه أعمده وفيه جدران وفيه سُقُف وفيه منافع أخرىٰ كثيرة، تجد أن هذه المنافع متشابكة متعاضدة كل يوم منفعة منها تعضد الأخرىٰ وكل جانب منه يعضد الجانب الآخر.

وهو كما وصف عليه الصلاة والسلام «**يشد بعضه بعضا**»، فهذا شأن البنيان، وصفة أهل الإيمان هذه كالبنيان يشد بعضه بعضا، وهذا فيه إشارة إلىٰ أن أهل الإيمان ينبغي أن يكونوا كذلك، «**كالبنيان يشد بعضه بعضا**» فإذا غابت هذه المعاني عن أهل الإيمان غاب عنهم تطبيقها والقيام بها فإن غياب ذلك عنهم أو ضعفه فيهم دليل علىٰ ضعف إيمانهم لأن الإيمان إذا قوي بين أهله ظهرت هذه الصِّفة التي ذكر النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا ضعفت هذه الصفة بين أهل الإيمان، فهذا دليل علىٰ ضعف الإيمان، وإلا فالخبر صادق كما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ، هذا شأن أهل الإيمان «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» فإن لم يكونوا كذلك ودبت بينهم العداوة والبغضاء والحسد والبغي والظلم والغش والخديعة والمكر وغير ذلك من المعاني فهذا من أمارات ضعف إيمانهم ونَقص دينهم؛ لأن الإيمان لو قوي فيهم وكمُل وتم لكان شأنهم كالبنيان.

وفي الحديث الآخر قال عليه الصلاة والسلام: «مثَل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالحمىٰ والسهر» فهذه صفة أهل الإيمان عند تكميلهم لإيمانهم وتتميمهم له.

وهنا يا إخوان لابد أن يراعي كل مسلم أمرا في هذا المقام إذا وجد الناس من حوله غير مطبقين لهذه المعاني التي دعا إليها دين الله، وأمر بها رسول الله ﷺ فليس الذي عليه في مثل هذا المقام أن يكون ما عليه الناس، إن كانوا علىٰ فساد يكون علىٰ فساد وإن كانوا علىٰ خير يكون علىٰ خير، ليس هذا الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن، وإنما الذي ينبغي عليه أن يؤدي الذي عليه من تحقيق معاني الدين وغاياته ومقاصده وكمالاته طلبًا لموعود الله وعظيم ثوابه تبارك وتعالىٰ لمن كان كذلك، فلا يقول قائل: قد فسد الناس فلِمَ أصلح أنا وحدي من بينهم، قد يأتي الشيطان للإنسان ويمنعه من كثير من الخير ومن معانيه فيبادل السيئة بالسيئة والغش بالغش والكذب بالكذب والخداع بالخداع والمكر بالمكر وغير ذلك، وهذا لا يجوز؛ بل الإنسان ينبغي أن يكون هو في نفسه مجتهدا في تحقيق ما أمره الله تبارك وتعالىٰ به، وهو في هذا ينال ثواب الله ثم يكون في مجتمعه قدوة للناس في الخير، يقتدون به ويتعلمون منه، ويثاب ثواب عظيما علىٰ حاله هذه ووصفه عندما كان مثالًا للخير.

قال: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» هذا فيه كما مرَّ أن المسلمين غاياتهم واحدة، وآمالهم واحدة وأفراحهم واحدة، وآلامهم واحدة، يجمعهم عبادة ربٍّ واحد، واتباع نبيٍّ واحد ﷺ وملة واحدة ويستقبلون قبلة واحدة، فإذا كانوا كذلك فلِمَ يتعادُون ولِمَ يتباغضون ولِم يتدابرون ولِم ينشأ بينهم الغش والحسد والغل والعداوة، وهو شأنهم كذلك؟

وعلىٰ كل حال الحديث فيه بيان ما ينبغي أن يكون عليه أهل الإيمان، فإن لم يكونوا كما وصف ﷺ في الحديث فهذا من ضعف إيمانهم ونقصه.

ثم في قول الصحابي في الحديث: (**وشبك بين أصابعه**) هذا فيه استعمال النبي ﷺ لوسائل الإيضاح في التعليم، وكان كثيرا ما يستعمل ذلك ﷺ، فلم يكتف بقوله: «**كالبنيان يشد بعضه بعضا**» وإنما شبك أصابعه ﷺ بين الصحابة ليجتمع عندهم فيه معرفة الأمر الكلام باللسان وحركة اليد التي تبقىٰ عالقة في الذهن ومؤثرة في الإنسان، قال: (وشبَّك بين أصابعه)، وكثيرا ما كان يستعمل صلوات الله وسلامه عليه وسائل الإيضاح، ومن جنس هذا قوله عليه الصلاة والسلام في حديث ابن مسعود عندما خط خطًّا مستقيمًا

ووضع علىٰ جنبتيه خطوطا وقال: «هذا سبيل الله وهذه سبل وعلىٰ كل سبيل شيطان يدعو إليه» هذه وسيلة إيضاح، فكثيرا ما كان يستعمل هذا نبينا صلوات الله وسلامه عليه.

الحديث الرابع عشر

عن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان إذا أتاه سائل أو طالب حاجة قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله علىٰ لسان رسوله ما شاء» متفق عليه.

وهذا الحديث فيه بيان ما ينبغي أن يكون عليه أهل الإيمان من تعاون ومن تمام قوله في الحديث الذي قبله «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» فهذا شأن أهل الإيمان في تعاونهم وتواصلهم وسعيهم في مصالح بعضهم؛ لأن أعمالهم واحدة وآلامهم واحدة والتعاون بينهم ظاهر بيِّن فهذا الذي يقتضيه إيمانهم ويدعوهم إليه دينهم، فمن تمام تطبيق الحديث السابق ما جاء في هذا الحديث.

قال: «**اشفعوا تؤجروا**» والمراد بالشَّفاعة: بذلُها عند أولي الشَّأن وأولي الأمر ممن طُلب من الشَّافع أن يشفَع عندهم لتتحقَّق مصلحة من طلب الشَّفاعة، وفي شفاعته للمُحتاج عند من طلب الشفاعة عنده أمران ينالُهما الشَّافع سواء تحققت الشفاعة وتحصَّل المراد أو لم يتحقَّق:

أما الأمر الأول: نيل الأجر وتحصيل الثواب قال: «**اشفعوا تؤجروا**»، ولم يتوقف حصول الثواب علىٰ تحقق المصلحة التي شفع فيها الإنسان، فالثواب حاصل بمجرد الشفاعة، فإذا شفعت لأحد في أمر عند مسؤول، أو عند صاحب شأن أو عند ولي أمر أو نحو ذلك فبمجرَّد بذلك للشفاعة أُجرت سواء نال من شفعت له ما يريد أم لم ينل؛ لأنَّ نيلك للثواب بالشَّفاعة لا بتحصيل صاحبها ما يُريد.

وليتأمل هذا الأمر قال: «**اشفعوا تؤجروا**» أي: تؤجروا بمجرّد بذلكم لها، وقد يظن بعض الناس أنه ينال الأجر إذا حصَّل من شفعت له مصلحته وحاجته، وهذا ليس صحيحا، وإنما أنت قد نلت الأجر بمجرد بذلك للشفاعة، هذا مقتضىٰ قوله ﷺ: «**اشفعوا تؤجروا**».

والأمر الثاني الذي تناله بشفاعتك: هو وقوفك مع أخيك وعونك له، سواء حصَّل ما يريد أو لم يحصِّل هو يدرك وقفتك معه، ومعروفك عليه وإحسانك له، سواء حصل ما يريد أو لم يحصِّل، فمن شفع نال هذين الأمرين، نال الأجر لقوله ﷺ: «**تؤجروا**»، ونال أيضًا وُدّ أخيه وقام بالمعروف معه وأحسن إليه، قال: «**اشفعوا تؤجروا**» أي: تنالوا الأجر عند الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: «**ويقضي اللهُ علىٰ لسان نبيِّه ﷺ ما يشاء**» وهذا فيه إشارة إلىٰ أن الأمور كلها بقضاء الله وقدره،

وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: «**ويقضي الله علىٰ لسان نبيِّه ﷺ ما يشاء**» وقضاء الله ﷻ نوعان:

قضاء كوني قدري، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ [فُصِّلَت:١٢].

وقضاء شرعي ديني، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]؛ أي: أمر ووصىٰ.

وهنا قال عليه الصلاة والسلام: «**ويقضي الله علىٰ لسان [رسوله] ما يشاء**» أي: أن الأمور بيد الله ﷻ يقضي ما يشاء ويحكم ما يريد، وأيضا يدل هذا المعنىٰ علىٰ أن الإنسان يبذل الشفاعة الحسنة التي ينال بها ثواب الله وعون أخيه، ويعتقد في الوقت نفسه أن الأمور بيد الله فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن والتوفيق بيده ﷻ